مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 29، أكتوبر 2021، ص - ص: 553 – 564
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

إسهامات الشيخ عبد الحميد بن باديس وإبراهيم أبي اليقظان في الحفاظ عن الهويّة الوطنية الجزائرية (1919 – 1939) دراسة تحليلية مقارنة

Contributions of sheikh Abdel Hamid Bin Badis and Ibrahim Abi yagzan to the Algerian national identity (1919 – 1939) Acomparative analytical study

د/ بلعربي عمر
كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة 1
Belarbi.omar83@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/10/24 تاريخ القبول: 2021/07/29

الملخص:
يعتبر أعلام الحركة الإصلاحية من الشخصيات الفذة ذات العطاء النير والنضال الوطني الصادق، حيث تعددت مواهبها وتنوعت نشاطاتها فكانوا سياسيين محنكين وخطباء وأدباء بارعين، ومن بين هؤلاء كان الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ إبراهيم أبي اليقظان اللذين كرسا حياتهما كلها من أجل تطهير المجتمع الجزائري من آثار السياسة الاستعمارية وما خلّفته من شروخ كان لها بالغ الأثر على مقومات الهوية الوطنية، فقد سعا كل منهما إلى إيقاظ ضمائر الجزائريين، والمساهمة في تحقيق نهضة فكرية و تربوية في الأوساط الشعبية وإن المتتبع لنشاطهما يلاحظ أنه كان نشاطا إصلاحيا تعليميا، تربويا ودينيا وكان هدف ذلك هو إنشاء جيل محصن بالإسلام والعروبة وحب الوطن، لكي لا يضعف ولا ينهار أمام السياسة الاستعمارية الإدماجية، فحارب العلماء سياسة الفرنسة والتجنيس، وكل ما له صلة بالبدع والخرافات، وقد استخدم هؤلاء المصلحون مجموعة من الوسائل أهمها تأسيس المدارس العربية الحرة، لتعليم اللغة العربية وثقافتها وقواعد الدين الصحيح، وفتحهم كذلك لجمعيات ونوادي لمساعدة الشباب على التخلص من جهلهم وأميتهم، ودعوتهم للقيام بمسؤوليتهم في العالم المعاصر، وإنشاء الصحافة والتي غرضها الإصلاح الديني والاجتماعي والتربوي وغيرها من الأعمال.

الكلمات المفتاحية: الحركة الإصلاحية؛ الهوية الوطنية؛ التعليم؛ السياسة الاستعمارية؛ الأمة الجزائرية.

Abstract:

The reformist movement’s flags are considered to be among the inimitable personalities of enlightened giving and sincere national struggle. Their talents and activities varied. They were seasoned politicians, preachers and brilliant writers. Among these were Sheikh Abdul Hamid bin Badis and Sheikh Ibrahim Abi Al-Yaqzan, who devoted their entire lives to purifying Algerian society from the effects The colonial policy and the cracks it left behind had a great impact on the foundations of national identity, as each of them sought to awaken the consciences of the Algerians, and to contribute to achieving an intellectual and educational renaissance in popular circles. Creating a generation imbued with Islam, Arabism and patriotism, so that it does not weaken or collapse in the face of the integrative colonial policy. The scholars fought the policy of France and naturalization, and everything related to heresies

and superstitions. These reformers used a number of means, the most important of which is the establishment of free Arab schools, to teach the Arabic language, its culture and the rules of religion It also opened them to associations and clubs to help young people get rid of their ignorance and illiteracy, and to invite them to carry out their responsibilities in the contemporary world, and to establish The press, whose purpose is religious, social, educational reform and other works.
Key words: The reform movement; National Identity; Education; Colonial policy; The Algerian nation.

مقدّمة:

منذ دخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر سعى بكل مجهوداته إلى القضاء على مكونات ومقومات الشخصية والهوية الوطنية الجزائرية لتزداد هذه السياسة تعسفا وشدّة بعد احتفالات الذكرى المئوية الأولى لاحتلال الجزائر أين برزت الحركة الإصلاحية بزعاماتها سواد التي ظهرت في الشمال ويقودها الشيخ عبد الحميد بن باديس ومعاونيه، أو تلك القادمة من الجنوب الجزائري ويتزعمها ثلّة من المصلحين وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم أبي اليقظان.

إن الهدف من هذه الورقة هو إظهار مدى تكاتف الجهود بين الشيخين في إطار العمل المشترك في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والرامية إلى العودة بالمجتمع الجزائري إلى سابق عهده بعد سياسة المسخ التي ألحقتها به الإدارة الفرنسية وعملائها من تغريب، وخرافات، وشعوذة، وبدع، وفرنسة المحيط...الخ، فكانت مسؤولية الإصلاح في غاية الصعوبة وقع إنجازها وتحمّلها على عاتق الشيخين.

ومن هذا المنطلق والواقع المرير يمكننا طرح الإشكالية الرئيسية للموضوع وهي: بعد هذا التغريب للفرد الجزائري داخل مجتمعه، وبعد هذه السياسة الاستعمارية الممنهجة والرامية إلى خلق جزائري غريب عن وطنه في كل شيء ما هي معالم وأطر وركائز فكرة الإصلاح الاجتماعي عند الشيخين والى أي مدى ساهما في الحفاظ على عناصر الهوية الوطنية الجزائرية خلال فترة ما بين الحربين العالميتين؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية عدة تساؤلات فرعية منها:

-ما هي أبرز المسائل الإصلاحية التي دافع عنها الشيخان ابن باديس وأبي اليقظان؟

- هل كانت للشيخين نظرة واحدة فيما يخص فكرة الإصلاح بصفة خاصّة والقضية الوطنية بصفة عامّة؟

- هل وفق الشيخان في وقوفهما تجاه السياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس الهوية الوطنية؟

1- الحفاظ على الهوية الوطنية:

1-1 دفاع ابن باديس عن اللغة والدين: بدأ الشيخ عبد الحميد ابن باديس في محاولاته للتصدي للحملة الاستعمارية التي تسعى لتذويب الجزائر في الكيان الفرنسي باكرا[1]، وقد جاء ليحمي الدين والوطن[2]، كما أكد بأنّ أبناء بن يعرب ومازيغ قد جمع بينهما الإسلام منذ بضعة قرون، وقد أخذت تلك القرون تمزج بينهم في وقت الشدة والرخاء وتألف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى تكونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام ويجزم بأن محاولة التفرقة بينهم ما هي إلا أمنية ولن تتحقق، إنما تزيد في اتحادهم وترابطهم[3]. فنجده قد رد على أحد المعجبين والمنبهرين بالحضارة الغربية ونفى ما جاء به فرحات عباس عن عدم وجود أمة جزائرية في التاريخ[4].

فأكد الشيخ بأن الأمة الجزائرية موجودة من قبل ولها تاريخها ودينها ولغتها وثقافتها وخصائصها ولا يمكن أن تصبح من فرنسا أو فرنسية[5]، فخاطبهم قائلا: "نقول لكم إنكم من هذه الناحية لا تمثلونا ولا تتكلمون باسمنا ولا تعبرون عن شعورنا وإحساسنا، وأننا نحن فتشنا في صحف التاريخ الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة المتكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال لها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة" ثم يجزم في القول بان الأمة الجزائرية ليست فرنسا[6].

فكان من أصعب الأمور عليه التي سعى إلى محوها من فكر بعض المثقفين والتي كانت فرنسا تعمل جاهدة على ترسيخ فكرة أنّ لا وجود للأمة الجزائرية، وأنها ما هي إلا كيان فرنسي تابع لها[7]، فنبه وحذر الشيخ ابن باديس من محو الشخصية الإسلامية حيث قال: "أحذر أن ترتكب غلطة فادحة بمحو الشخصية الوطنية الإسلامية لا يسيئ أثرها في الأمة الجزائرية وحدها بل يسيىء أثرها في العالم الإسلامي كله وتعتبر في نظر الجميع بترا لعضو من أعضاء الإسلام"[8].

ويحذر الشيخ أيضا: " من الذين يأتون من غير تاريخنا وضميرنا ودينا والذين هدفهم إبطال الدين والملة" ويقول " فالحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء"[9].

لقد سعى رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على نشر الثقافة الإسلامية العربية والاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي في نفوس الجزائريين، فيقول:" إن الشعوب تختلف بمقوماتها كما تختلف الأفراد، ولا لبقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته".

وقد رفض الشيخ ابن باديس كل أنواع التجنيس ورأى بأن الجنسية نوعان:

الجنسية القومية: هي مجموع تلك المقومات والميراث وهي المقومات وهي اللغة التي نتعرب بها ونتأدب بآدابها والعقيدة التي نبني على أساسها حياتنا.

الجنسية السياسية: تتمثل في أن يكون شعب ما لشعب آخر من ناحية الحقوق المدنية والاجتماعية والسياسية مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات التي اشتركا في القيام بها والمصالح التي ربطت بينهما[10].

وعلى هذا النحو وقع ارتباط بين الجزائر وفرنسا ولم تكن رغبة مشتركة بين ناحية الجنسية السياسية أما فيما يخص الجنسية القومية فقد عجز المستعمر عن إزالتها لأن الأمة الجزائرية بقيت مرتبطة بالعرب والمسلمين، وهكذا نلاحظ أنّ مقومات الشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس انحصرت في ثلاث مقومات أساسية:

-الإسلام كدين وحضارة وأخلاق وسلوك.

- العروبة كلغة وثقافة وتاريخ وانتماء.

- الجزائر كوطن عربي إسلامي وهو جزء لا يتجزأ عن الوطن العربي[11].

فهو لا يتخيل مستقبل آخر للجزائر خارج دائرة الإسلام فوحده الذي تبنى عليه الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري[12]، فالإسلام دين البشرية الذي تسعد به فهو يدعوا إلى الأخوة بين جميع المسلمين وبه تنور العقول وتزكى النفوس وتصحيح العقائد وتقويم العقائد، وعليه فإنه هو الذي تقوم عليه المقومات الشخصية للمجتمع الجزائري ويشكل مانعا حصينا لهذه الشخصية ضد كل تهديد داخلي أو خارجي يسعى بالمساس بها[13].

يقول الشيخ ابن باديس:" إننا قوم مسلمون ولأننا مسلمون نعمل على الحفاظ على تقاليد ديننا التي تدعوا إلى كل كمال إنساني، ونحرص على الأخوة والسلام بين الشعوب والبشر". ويقول أيضا" إن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها"[14]، إذن فنحن مسلمون مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا ولا يمكن أن نصل إلى هذا الإسلام إلا عن طريق التعليم، ويجب أن يمس جميع فئات المجتمع الجزائري رجال ونساء وبنين وبنات[15].

ففي عام 1937 ألقى الشيخ ابن باديس محاضرة في جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة التي يترأس مجلس إدارتها، والذي جاء فيها ما يلي:" ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدنا الدين الذي يحترم الإنسانية في أجناسها... وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله، علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة وسعادة إلا به... فعاهدنا الله على أن تقف حياتنا على خدمته فإني عشت له ونعيش له"[16].

أما فيما يخص اللغة العربية يعتبرها هي وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها نقيس من يأتي من بعدنا من أبنائنا وأحفادنا، فهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي لما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار، وما في النفس من آلام وآمال[17]، ففي نظره تعد الركن الثاني من أركان الشخصية الجزائرية التي احتلت العروبة في فكره وكتاباته مكانة سامية مثلما يحتلها الإسلام[18] ويقول: "نحن نعمل على إحيائها منذ سنين فالشعب المتشبث بلغته يمتلك زمام الأمور"[19].

فالشيخ ابن باديس يعتز بالعروبة التي أغنت الجزائر بثقافة وحضارة لا مثيل لها في تاريخ المغرب الإسلامي ولهذا نجد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحمل الشعار التالي: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا[20].

أما الركن الثالث المكون للشخصية الوطنية فهو الوطن الجزائري فيقول في هذا الشأن: "ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وآمال المستقبل وبالنسبة للوطن توجب علم تاريخه والقيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعلمية ومحافظة على شرف اسمه وسمعته، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه"[21].

يؤكد ابن باديس على وطنيته أيضا فيقول: "أما الجزائر فهي وطني الخاص وتفرض علي تلك الروابط لأجله فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة إليه وإلى رجاله وماله وآلامه، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت من ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه هكذا هو الاتصال المباشر الذي أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأحوال"[22].

فعلى كل مواطن أن يعمل لوطنه[23] وعلى هذا الأساس تقوم الشخصية الجزائرية فهي تنفي نفيا باتا بأية محاولة زائفة تحاول النيل من صلابتها ووحدتها[24].

يبدو أن ابن باديس دافع عن اللغة العربية والدين الإسلامي والوطن أيما دفاع في وجه الإدارة الاستعمارية التي حاولت اجتثاث واستئصال العنصر الجزائري الذي رأت فيه التخلف والجهل واستبداله بالعنصر الأوربي المتقدم والمتعلم.

1-2- دعوة أبي اليقظان إلى تبنّي الوطنية الحقّة: يعد الشيخ أبو اليقظان من أحد ابرز العلماء والمفكرين ورجال الإصلاح في ميزاب خاصة والجزائر عامة لذلك كان مدافعا عن فكرة الوطنية، وقد حدثنا عن عادة الناس المألوفة في التغني بالوطنية حيث يقول عنهم:" إذا كانت الكلمة ضخمة المعنى فخمة

المبنى رنانة النغمة زاهرة اللون رائجة في أوساط الأسواق، ترى الناس على اختلاف طبقاتهم يتسابقون إليها ويتجاذبون إليهم، كالوطنية والقومية والإنسانية والحرية والعدالة كما يتسابقون إلى الغادة الهيفاء لسماع نغماتها الشجية وألفاظها الساحرة المعسولة وهم في الواقع بعيدو الوصول إليها"[25].

وهكذا نجد الشيخ أبي اليقظان لم يقف مكتوف الأيدي من الدعوة للوحدة في المشرق وبلاده تمزقها المحن بل سارع بجهوده المكثفة ينشد الفكرة ويتغنى بها خاصة أن التفرقة هي السلاح الفتاك في يد عدو فسعى إلى لم الشمل والشتات، فنجده يدعوا دعوة صريحة إلى ضرورة تعزيز الوحدة الوطنية حيث يقول: "إذا كان المشرق على اختلاف دياناته يبارك للوحدة، فكيف نختلف نحن فيما بيننا ولنا دين واحد، لا نسعى في جمع الكلمة وتوحيد العناصر على مبدأ الأخوة وطرح سائر الفوارق خلف الظهر أمام الوحدة الإسلامية"[26]، كما رأى أن التماسك الاجتماعي بين أفراد الوطن الواحد وتعاطف القوى بين طبقاته هو الطاقة القوية التي تدفع بأمة جمعاء إلى الأمام[27].

كما بين أن رسالة المصلح الاجتماعي في المجتمع المريض كالمجتمع الجزائري الذي مزقه الجهل والفقر والتعصب يجب أن تتسامى عليه العواطف الفردية، وتتجاوز العصبيات المذهبية والتفكير بالعنصرية القبلية وبهذا سعى إلى إيصال هذه الوصايا إلى القارئ الجزائري[28].

من اجل هذا كان حريصا على ضرورة تمسك الفرد بأخيه الفرد لذا كتب مقالا عنوانه: "أيها الجزائري المسلم إنك أخو المسلم دينا، ولغة وجنسا ووطنا وسرورا...أيها الجزائري العزيز أنت شقيق الجزائري الروحي أبوكما الإسلام وأمكما الجزائر..."[29]، وبالتالي المبادئ التي تربى عليها أبي اليقظان غرست فيه روح حب الوطن، والوقوف في وجه من يرمى إلى بث التفرقة والشقاق بين أبناء الوطن ومصلحة البلاد"[30].

ومن شدة حبه للوطن نجده يدعوا إلى الوحدة الوطنية حيث كتب مقالا تحت عنوان: " الوطنية الحقة" يقول فيه" إن الوطنية ليست جهل بتاريخ البلاد ومجد عظماء البلاد ولسان البلاد ودين البلاد... والوطنية ليست تفاخر بتاريخ الغير ومجده وعظماته ولسانه ودينه... وإنما الوطنية شرارة نارية يقذفها الله في النفس فيلتهب فيها الدماغ... إنما الوطنية الحقة أن يسعى الإنسان قدرا جهده إلى جلب الخير العميم لوطنه ورفع الضرر عنه بمقتضى العقل والحكمة والشرع والقانون..." وبالتالي الوطنية الحقة أن يشقى الإنسان من اجل وطنه[31].

وقد اهتم أبي اليقظان اهتماما شديدا بمعالجة الواقع المحلي للجزائر وتوجيه النصائح إلى عموم الجزائريين داعيا في نفس الوقت إلى الاتحاد والتضامن والتأكيد على الشخصية الجزائرية حيث يقول: "إنما وطني الحقيقي من يسعى في خدمة وطنه وإحياء بلده ويضحي بنفسه، وإن روح الوطنية تهذب في نفوسهم على العمل الصالح والأخلاق الفاضلة ورأى بأن خدمة الوطن ترفعهم من الجهل"[32].

وقال أيضا: "ليست الوطنية عبادة بل الوطني من يتبع قوله بالعمل العائد على أمته بالمنفعة والصلاح، فإنك تجد كثيرا من الخائنين يدعون للوطنية... بل ابن الوطن الحقيقي هو القائم بالأعمال الهائلة والواجب عليه وجوبا حتميا إلى ترفعه إلى الأقصى درجات الرقي ويطهر ثوب وطنه من الذين يدنسون"[33].

ومن أجل الوطنية الحقة والوحدة يجب أن يتمّ الاهتمام بشيئين:

أولا: التربية الصحيحة التي تدفع الإنسان إلى السعي والعمل لإحياء الوطن والدين.

ثانيا: العلم وهو الذي يرشده إلى سبيل السعادة[34].

إن وطنية أبي اليقظان هي وطنية العالم الصادق المخلص لوطنه وشعبه العالم الذي لا يكتفي بالقول دون الفعل، العالم الذي يفهم بأن الوطنية هي الوحدة الشاملة التي تجمع أبناء الوطن وتؤلف بين قلوبهم، ولا شك أنها الوحدة التي دعا إليها الإسلام في أحكامه التي تضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[35].

لاحظنا أن أبي اليقظان ركز على الوطنية حتى أصدر مقالا في هذا الشأن داعيا إلى الوحدة الوطنية والتمسك بها من أجل الحفاظ على الشخصية الجزائرية والوقوف في وجه كل من توسوس له نفسه زرع وبث بذور الفتنة والشقاق.

2- محاربة الفرنسة والعمل على نشر التعليم العربي

2-1 دور الشيخ ابن باديس في نشر التعليم العربي الإسلامي: لقد سعى الاستعمار الفرنسي على تفكيك البنية الثقافية في الجزائر خلال القرن 19 وبداية القرن 20 حيث دمرت المدن وأفرغت من محتواها، فانتشرت الأمية في كل مكان وسادت الثقافة الفرنسية فقد قامت السلطات الفرنسية بغلق المساجد والمدارس والزوايا والتي كانت الجزائر بالأمس تعج بها، ومع السياسة الفرنسية انحصر التعليم في المدن والمناطق البعيدة وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة والتي يتم التخاطب بها في بعض المدن مثل قسنطينة وعنابة وغيرها[36]، ولقد عبر الشيخ ابن باديس عن هذا الوضع بقوله: "كانت الأمة تشكوا من الظلم والغبن في بقاء نحو مليون من أبنائها محروما من التعليم إلا الفرنسي...".

فواقع التعليم العربي في الجزائر خلال العقد الثالث من القرن 20 تراجع مقارنة بما كان عليه قبيل الاحتلال الفرنسي فساد الجهل والفرنسة ومحاولات الإدماج، فغرق الشعب الجزائري في الأمية رغم المحاولات التي قام بها الاحتلال لتجنب هذا الوضع من خلال بناء المدارس والكليات إلا أن عددها كان قليل مقارنة بعدد الشعب الجزائري[37].

فكان التعليم لا يسمح للجزائريين بتعلم لغتهم ولا دينهم وهذا من اجل طمس هويتهم فوصف الشيخ ابن باديس الحالة التي آلت إليها الجزائر فيقول: "لقد كان العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء ليست له مدارس، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، كان أبناؤنا لا يذهبون إلا للمداس الأجنبية..."[38].

وقد اتخذت السلطات الاستعمارية جملة من التدابير والمواقف حول كل نشاط تعليمي من بينها:

قانون الرخصة: حيث اشترط على كل من يفتح مدرسة أو يدرس لا بد من حصوله على رخصة، وجعلت لها شروط مستحيلة التحقق، فابن باديس كان من ضمن المستدعين من طرف الجهات المعنية من اجل استجوابه[39] فقال: "أمضيت عشرين سنة ونحن نعلم في جامع الأخضر... وبعد هذه العشرين سنة دعيت من قبل الكاتب العام وسألني عن الرخصة وأن القانون يمنع التعليم بدون رخصة وقد أبديت تعجبي من السؤال"[40].

غلق المدارس: من خلال قانون 10 فيفري 1933 الذي أصدر لغلق المدارس والمساجد بالأخص المدارس القرآنية فقد استنكر الشيخ ابن باديس هذا الإجراء، ودعى إلى الاهتمام بالتعليم والعمل على ترقيته وتعميمه على جميع فئات المجتمع، فطالب الإدارة الاستعمارية باحترام اللغة العربية والاعتراف بها كلغة رسمية وترك الحرية للجزائريين في فتح الكتاتيب والمدارس الحرة[41].

ويعتبر مجال التعليم من أهم المجالات التي اهتم بها الشيخ ابن باديس فقد عمل 27 سنة للتربية والتعليم واتخذ مجال التربية كسلاح للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي، لأن أهداف التربية عنده تشمل كل هذا فإصلاح التعليم في نظره لا يكون إلا بالعودة إلى التعليم النبوي في شكله ومضمونه وبه تنهض الأمة[42].

كما تصدى الشيخ ابن باديس لقانون 8 مارس 1933 الذي اهتزت الأمة الجزائرية على أثره والقاضي بعرقلة التعليم، الإسلام، ولغة الإسلام والتي كان فصلها الأول منع الرخص وغلق كثير من المدارس ومحاكمة المعلمين أما فصلها الثاني هو ما عقبه من تشديد وتعطيل وتنكيل[43].

فبدأت السلطات بمقاومة تعليم الدين ولغة الدين وأخذت تشدد عليه بقدر رغبة أبنائها في تعليم دينهم وتثقيفهم فلما طالبوا بالمدارس اعتبروهم ليسوا أهلا لها فعملوا كل ما بوسعهم لتدمير ثقافة المجتمع الجزائري فوقف الشيخ ابن باديس موقف المعارض والمدافع واعتبره عار على فرنسا فقال: "عار والله عار أن يقال أن الأمة الجزائرية تريد أن تتهذب بتعليم دينها ولغة دينها... والإدارة تمنعها وتعرقلها وتقاومها"[44]، وندد بهذا القانون الجائر ودعا كل من النواب الجزائريين الأحرار وقضاة الشرع الإسلامي، وكذا معلمي الفرنسية الأحرار إلى الوقف في وجه السلطات الاستعمارية ومطالبتها على التراجع عن هذا القانون، ودعا النواب الجزائريين الأحرار دعاهم إلى وضع يدهم في يد الجمعية لمقاومة ما جاء في القرار ويحثهم على المحافظة على الدين ولغته[45].

وقد طالب ابن باديس بحرية التعليم العربي كالتعليم الفرنسي وحرية استعمال المساجد للوعظ والإرشاد وكذا حرية الصحافة العربية، والجمعية التي ترأسها الشيخ ابن باديس امن إيمانا راسخا بأن العلم هو السبيل الأنجع لتخليص الجزائر مما تعاني من استضعاف وهوان فراحت تنشر العلم وتبثه بين الناس وتدعوهم إلى الجد في تحصيل العلم النافع[46].

كما ركز على تعليم المرأة ودعا أولياء الأمور إلى ضرورة تعليم بناتهم ضمن إطار حضاري وكل هذا من أجل إنجاح مشروعه المبني على الشمولية لأن المرأة هي الركيزة الأساسية في تربية الناشئة فخصصت من أجلها مدارس لتعليمهن مجانا لتكون منهن جيلا يساهم في تربية الأجيال[47].

نلاحظ أن رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خاض حربا ضد الإدارة الاستعمارية التي حاولت القضاء على التعليم والدين الإسلامي واللغة العربية فقام بتأسيس المدارس في مختلف ربوع الوطن من أجل تعليم الجزائريين وتخليصهم من الأمية والجهل، بالإضافة إلى محاربة سياسة التنصير والوقوف ضد القرارات الفرنسية الرامية إلى القضاء على اللغة العربية واستبدالها بالفرنسية لجعل الجزائريين فرنسيين في المستقبل لخدمة مصالحها.

2-2 دعوة أبي اليقظان إلى التعليم الديني: إن أبي اليقظان يرى بان الحركة الإصلاحية تبدأ بمعالجة الأوضاع الداخلية وذلك بالتصدي للأفكار المتحجرة التي ترسبت في أذهان بعض الجزائريين لذا سخر قلمه لمحاربة الجمود الفكري، الذي لا يتجاوب مع روح العصر[48] ولم يكتف بمقاومة السلبيات عن طريق مقالاته وخطبه ورسائله ومؤلفاته وإنما نزل إلى الميدان ليتصدى لأصحاب هذا الاتجاه[49]، عن طريق المؤسسات العلمية التي يرى فيها خير مساعد على تنشئة جيل متعلم ومنفتح على العصر وتطوراته، وقد جاء جهاده في سبيل البعثة العلمية بتونس عام 1925 والتي تفتحت على المدارس النظامية واستفادت من المناهج والعلوم المعاصرة لأنه أدرك يقينا بأن آفة الجمود الفكري هي أولا وقبل كل شيء من آفات الجهل والانغلاق

ولذا فإن الصراع لا يكون بين فئة وأخرى وإنما يكون بين العلم والجهل والثبات والتطور، فوجود هذا الصراع دليل على نهضة الأمم وهو سمة من سمات التقدم ومظهر من مظاهره[50].

وقد شخص أبي اليقظان الواقع الجزائري بحثا له عن علاج فوجد أن السبب في ذلك هو الاستعمار وأن هناك ثلاثة عوامل لو تسلط عامل واحد على الأمة لزعزع ركنها ألا هو الجهل والفقر والافتراق[51]، حيث قال:" فالجهل أفقدها الشعور بوجودها وكيف تدب عليه والفقر أقعدها عن العمل وشل أعضائها عن الحركة، والافتراق أذاب قوتها ودب بريجها فبقيت الحالة هذه عرضة للتلف والهلاك والاضمحلال، فاستغراقها في ذلك النوم نتيجة تلك الحالة المحزنة التي كان منشأ بركانها الظلم والاستبداد"[52].

وكما بين بأن داء الأمم يتجسد كثيرا في الجهل الذي يعتبر علة العلل وموطن الضعف والتخلف لذلك كرس جهوده من أجل مقاومته عن طريق كتابة العديد من المقالات التي اعتبرها أداة من الأدوات التي تواجه الأمم والشعوب، وتقف في سبيل التحرر وبناء الشخصية الإنسانية وقد قال عن الجهل: "بالجهل هتكت الأعراض، ودست الكرامات، أهينت الأديان، أبيدت الأمم، خربت البلاد..."[53].

وقد أراد توضيح عدة أمور لتنبيه الأمة نأخذ منها: بأن المدارس هي من تمزق غشاء النوم وتنبه بواجبها نحو الحياة، الجرائد الوطنية الحرة تنير سبيل العمل وتأخذ بيدها إلى ما فيه الخير والصلاح، المجامع العلمية لإخراج نبوغ الأمة وعبقريتها[54].

لذا راح أبي اليقظان في مقالاته يدعوا إلى ضرورة الاهتمام بالعلم والتعليم والإقبال عليهما بكل الوسائل والطرق مهما عظم شانها أو صغر، ونظرا لتجربته ينصح بالابتعاد عن التعليم الفاشل لأنه يضعف الإيمان بالعلم ويقلل الثقة بمنافع العلم[55].

كما عالج أبي اليقظان في مقالاته وضعية التعليم في الجزائر وبين سلبيات الكتاتيب وتعليم المدارس الفرنسية ويعود سبب ضعف التعليم في الكتاتيب أساسا إلى ضعف المعلمين أنفسهم وطرقهم التقليدية المشوشة في إلقاء الدرس، ونظرتهم التربوية الخاطئة في الحد من حرية التلميذ، جهلهم التام ببعض الفنون الضرورية وكذا حال التعليم وما أجري عليه من تغير في أساليب نظامية[56].

وقد اعتبر الشيخ أبي اليقظان أن اللغة العربية هي روح الوطن ولذلك وجب المحافظة عليها باعتبارها تساهم في ترقية الأعمال الاجتماعية والثقافية والسياسية، لذا ولى اهتمامه باللغة العربية إذ قال: "لا يخفى أن اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي ولغة الزمان المجيد ولغة الحديث الشريف ولغة التدوين... وهي لغة التخاطب والتفاهم بين المسلمين في الدنيا والآخرة"[57].

وبالتالي هي اللغة التي تحيي القومية بحياة لغتها وموتها بموت لغتها، كما بيّن دور اللغة العربية في تعزيز الهوية الوطنية فيربطها بالإسلام دائما ويجعلها مكملة له فبين حقيقتها وأعطاها صفة العالمية والإنسانية حيث قال:" إن اللغة العربية كما لا يخفى ليست لغة القومية خاصة ولا لسان فئة ممتازة بل هي لغة عالمية عامة لأنها لغة الدين العالمي العام، ألا وهو الدين الإسلامي فهي لغة القرآن ولسان السنة القويمة..." ثم قال:" إن مقاومتها والسعي في إماتتها ليست مقاومة لها ولا عنصرية العربية فحسب، بل مقاومة للبشر كافة ولا سعادة حقيقية للبشرية بغير الإسلام ولا إسلام بغير اللغة العربية "، وقد دعا الشباب إلى تعلم اللغة العربية كما انه تناول في العديد من المقالات قضية اللغة العربية كمحور أساسي لا مجال فيه للنقاش، وقد استبشر خيرا لمستقبل بعد أن أخذت النهضة الإصلاحية تأتي بثمارها خاصة بعد بروز النوادي والجمعيات والصحافة خلال فترة الثلاثينيات[58].

نلاحظ أن من بين القضايا التي ركز عليها أبي اليقظان هي مسألة التعليم الديني وذلك من خلال تعميم المدارس وإنشاء الصحف والجرائد، بالإضافة إلى دفاعه المستميت على اللغة العربية التي اعتبرها روح الوطن والتي تساهم في تعزيز الهوية الوطنية فالرجل ساهم من خلال مقالاته إلى إيقاظ الوعي الوطني ومحذرا من السياسة الفرنسية الرامية إلى طمس وتشويه الهوية الوطنية.

3- المقارنة بين إسهامات الشيخين في الدفاع عن الهوية الوطنية (استخراج أوجه الشبه والاختلاف)

3-1 - أوجه الشبه: لاحظنا أن هناك العديد من القضايا الهامة التي اشتركا واتفقا فيها الرجلين ودافعا عنها:

- الهوية الوطنية.
- الدين الإسلامي واللغة العربية.
- التعليم العربي ومحاربة الفرنسة والتنصير.
- الدعوة إلى الوحدة الوطنية بين أبناء المجتمع الجزائري والوقوف في كل من توسوس له نفسه بث بذور الفتنة والشقاق.
- كتابة المقالات في الصحف والجرائد التي أسست من قبلهما بهدف إيقاظ الوعي الوطني داخليا، والعمل على فضح السياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس وتشويه وحذف الشخصية الجزائرية على المستوى الخارجي.

3-2- أوجه الاختلاف: لم يلاحظ اختلاف كبير بين الرجلين إلا في بعض النقاط منها:

- اختلاف المنطقة الجغرافية: ابن باديس انطلق من الجهة الشمالية في الدفاع عن الهوية الوطنية، بينما أبي اليقظان انطلق من الجهة الجنوبية في الدفاع عن الهوية الوطنية.
- اعتماد الشيخ ابن باديس على جمعية العلماء الملمين الجزائريين كدرع واقي دفاعا عن الهوية الوطنية ولمجابهة سياسة فرنسا الاستعمارية.
- اعتماد الشيخ أبي اليقظان على الصحافة الحرة في دفاعه عن الهوية الوطنية ومواجهة مخططات فرنسا الاستدمارية.

يبدو من خلال ما تطرقنا إليه أن الرجلين غلبت عليهما الوطنية حيث أنهما " دافعا عن الهوية الوطنية واللغة العربية والدين الإسلامي بالإضافة إلى مسائل أخرى منها محاربة الفرنسة والتنصير وذلك من خلال وقوفهما في وجه الإدارة الاستعمارية أيما وقوف، باستخدام واستعمال الصحافة التي أسست من قبلهما وهذا من أجل إيقاظ وعي الأمة الجزائرية داخليا، وفضح السياسة الاستعمارية على الصعيد الخارجي.

خاتمة:

ممّا سبق عرضه عن دور الشيخين عبد الحميد ابن باديس وإبراهيم وأبو اليقظان يمكن ان نستخلص جملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط التالية:

- معارضة الشيخ ابن باديس كل من يريد القضاء على الهوية الوطنية وبيّن أن الجزائر كيان مستقل عن الكيان الفرنسي وهما مختلفان فيما بينهما من كل النواحي، فكان الشيخ ابن باديس حريص على المحافظة عليها من خلال نشر الثقافة الإسلامية، وبث روح الاعتزاز بالتراث العربي ويتم نشرها عن طريق دروسه ومقالاته.

- كما اهتم الشيخ ابن باديس بمجال التعليم وأعطى له النصيب الوفير من الاهتمام وسعى إلى إصلاح مناهجه ضمن إطار عربي إسلامي من أجل تثقيف أبناء أمته الذين يتخبطون في الجهل والأمية فدعا إلى إنشاء المدارس والمساجد.
- دعوة أبي اليقظان إلى ضرورة الوحدة الوطنية من خلال الوقوف في وجه العدو الأجنبي وسعى إلى توحيد صفوف أبناء الوطن من خلال بث روح الأخوة والتشبث بالمبادئ الوطنية المكونة للشخصية الجزائرية، كما اهتم بمجال التعليم وأعطى الأولوية للتربية والتعليم الديني والغاية منه إخراج جيل متدين واعي بمناهجه التعليمية الإسلامية.
- الدفاع المستمر لابن باديس عن اللغة العربية والدين والوطن كونهما من معالم الحضارة الإسلامية ورمز الثقافة العربية والمكونين للشخصية الوطنية.
- تغنى أبي اليقظان بفكرة الوطنية ودعوته إليها لأن التماسك الاجتماعي بين أفراد الوطن الواحد والرجوع إلى الدين ومنابعه الصافية يحقق الوحدة الاجتماعية، وسعى للوقوف أمام من يبث التفرقة والشتات بين أبناء الوطن ومصلحة البلاد.
- دعوة كلا الشيخين إلى الاهتمام بنشر التعليم الإسلامي بكل الوسائل ومحاربة الجمود الفكري وذلك من خلال بناء المساجد والمدارس.

الهوامش:

[1]- لطيفة عميرة: سؤال النهضة عند عبد الحميد بن باديس "1889- 1940" الطبعة الأولى، دار الأيام، عمان، 2016، ص 147.

[2]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية "1900- 1930"، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 391.

[3]- عبد الحميد بن باديس: "ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان"، جريدة البصائر، ع3، السنة الأولى، 1932، ص 18.

[4]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية " 1930- 1945" الجزء الثالث، الطبعة الرابعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 87.

[5]- المرجع نفسه: ص 87.

[6]- عبد الحميد بن باديس: " كلمة صريحة"، الشهاب، المجلد 12، الجزء 1، 1936، ص 391.

[7]- فهمي توفيق، محمد مقبل: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح في الجزائر الحديثة 1889-1930، "د.ن"، "د. ت"، ص22.

[8]- عبد الحميد بن باديس: بيان تحذير غلى الأمة الجزائرية، البصائر، العدد 100، السنة الثالثة، 1938، ص 85.

[9]- عبد الحميد بن باديس: مبادئنا وغايتنا وخطتنا، ص 5.

[10]- عبد الحميد بن باديس: "الجنسية القومية والجنسية السياسية" الشهاب، المجلد 12، الجزء 12، 1937، ص 571.

[11]- لطيفة عميرة: المرجع السابق، ص 148.

[12]- رابح تركي عمامرة: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الطبعة الخامسة، المؤسسة للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص 328.

[13]- عبد الحميد بن باديس: جمعية العلماء وأصولها، الشهاب، المجلد 13، الجزء 4، 1937، ص 195.

[14]- المصدر نفسه: ص 198.

[15]- رابح تركي عمامرة: المرجع السابق، ص 339.

[16]- عبد الحميد بن باديس: " لمن أعيش؟" البصائر، ع 48، السنة الأولى، 1936، ص ص 484-485.

[17]- محمد الحسن فضلاء: الشذرات من مواقف الإمام عبد الحميد بن باديس، دار هومة، الجزائر، 2014، ص 89.
[18]- رابح تركي: المرجع السابق، ص 279.
[19]- عبد الحميد بن باديس: " نص التقرير الأدبي" البصائر، ع 171، السنة 4، 1939، ص 249.
[20]- لطيفة عميرة: المرجع السابق، ص 149.
[21]- عبد الحميد بن باديس: " الرجل المسلم الجزائري" المصدر السابق، ص 493.
[22]- محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ص 110.
[23]- عبد الحميد بن باديس: " لمن أعيش" المصدر السابق، ص ص 484-485.
[24]- رابح تركي عمامرة: المرجع السابق، ص 89.
[25]- يمينة بن رحال: الشيخ أبو اليقظان عيسى وقضاياه عصره "1306ه. 1888- 1393ه.1973"، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، الجزائر، 2015، ص 89.
[26]- أبي اليقظان: الوطنية الحقة، وادي ميزاب، ع 52، 1927.
[27]- يمينة بن رحال: المرجع السابق، ص 89.
[28]- محمد ناصر: شخصيات جزائرية الشيخ إبراهيم بيضون مصلحا وزعيما وأبو اليقظان وجهاد الكلمة، الطبعة الأولى، عالم المعرفة، 2015، ص 61.
[29]- أبي اليقظان: " أيها الجزائري" وادي ميزاب، ع1، 1926.
[30]- المصدر نفسه.
[31]- أبي اليقظان: الوطنية الحقة، المصدر السابق.
[32]- أبي البقظان: " الوطن الحقيقي" وادي ميزاب، العدد 20، 1927.
[33]- المصدر نفسه.
[34]- المصدر نفسه.
[35]- الجيلالي ضيف: بناة المجد أو اليقظان، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، الجزائر، ص 79.
[36]- أمال مقاق، لبنى بن الطيب: المرجع السابق، ص 15.
[37]- عبد الحميد بن باديس: " كتاب مفتوح إلى النواب الجزائريين الأحرار بالعملات الثلاث" البصائر، العدد 110، السنة الثالثة، 1938، ص 169.
[38]- عبد الحميد بن باديس: النص التقريبي للنص الأدبي" البصائر، ع 171، السنة الرابعة، 1939، ص 249.
[39]- سعيد عليوان: المرجع السابق، ص ص 232 – 233.
[40]- عمار طالبي: آثار ابن باديس، المجلد الثاني، الجزء 1، ص ص 190-193.
[41]- صادق بلحاج: المرجع السابق، ص 196.
[42]- سعيد عليوان: المرجع السابق، ص 331.
[43]- عبد الحميد بن باديس: ما ذا تزرع؟ وماذا يزرعون؟ البصائر، ع 116، السنة 3، 1938، ص 215.
[44]- عبد الحميد بن باديس: نريد المعاونة لا نريد المعارضة، المصدر السابق، ص 207.
[45]- عبد الحميد بن باديس: كتاب مفتوح إلى النواب الجزائريين الأحرار بالعملات الثلاث، البصائر، ع 110، السنة 3، 1938، ص 169.
[46]- المصدر نفسه: ص 170.
[47]- عمار طالبي: آثار ابن باديس، المجلد 1، الجزء 2، المصدر السابق، ص 203.
[48]- يمينة بن رحال: المرجع السابق، ص 62.
[49]- المرجع نفسه: ص 62.
[50]- نفسه: ص 62.
[51]- أبي اليقظان: " شعور الأمة نائم فماذا ينبهه"، وادي ميزاب، ع42، 1927.
[52]- نفسه.

[53]- يمينة بن رحال: المرجع السابق، ص 63.
[54]- نفسه: ص 64.
[55]- أبي اليقظان: نحو الصف الأمامي، أين تقاس رغبة الأمة في العلم شرح وبيان، لحلقة الثانية، وادي ميزاب، ع 74، 1936.
[56]- أبي اليقظان: "العلم والتعليم الصحيحان"، وادي ميزاب، ع6، نوفمبر 1926.
[57]- أبي اليقظان: "اللغة العربية غريبة في دارها" وادي ميزاب، ع 55، 1927.
[58]- يمينة بن رحال: المرجع السابق، ص 68.